CHRONIQUES PHILOSOPHIQUES

DIDIER ANZIEU

شهرية الفلسفة*

لا يمكنك أن تتصور أو تدرك موقف الفلسفة المعاصرة الا على صورة أزمة من الأزمات . فالفيلسوف لم يعد يعرف ما هو عليه بل ما هو فاعله ، وقد طغى الوجود عنده على الفكر . ويجتاز العالم بأسره اليوم تجربة ديكارت ؛ فقد بل قراءة جميع الكتب وارتياد كل البلاد ، وأخذ يشك فى الآراء جميعها والمعارف كلها ، وزعزع الفروق الاجتماعية ، وانطلق يبحث فى صفاء ذهن مجرد من الأمل عن نقطة ثابتة يستطيع أن يحول منها مجرى الكون ، وأن يخضع لها نظام أفكاره .

إن الفلسفة تجتاز أزمة محكمة ؛ فأسس المنطق بدأت أزمتها على أثر تقدم العلوم واستكشاف نظريات الهندسة غير الاقليدية ونظرية إنشتين . أما أسس الجمال فقد عرفت الأزمة منذ تسرب مذهب السيريالزم إلى الفنون . وأخيراً أدى التحليل الذى قام به ماركس وفرويد على التوالى لعمليات الحياة الجماعية والفردية اللاشعورية ؛ إلى فقد علم الأخلاق آخر أركانه الثابتة . وقد أفزعت هذه الأزمة الأخيرة التى تولى نيتشه الحديث عنها قلوب الفلاسفة ، حتى إنهم لزموا الصمت حيالها ؛ ونجدهم فى فرنسا قد تواروا خلف ثلاثة من الأدباء هم : أندريه جيد ، وأندريه مالرو ، والبير كامو .

بل إن هناك ما يهدد وجود الفلسفة نفسه . وهل كان من الممكن أن يحدث غير ذلك ؟ فكل مرة يكون الانسان فيها موضوع سؤال ، تكون الفلسفة هى أيضاً موضوع سؤال . ما مصيرها ؟ وما مصيره ؟ إنها مشكلة واحدة . والفلسفة كثيراً ما استشهدت بالناس ، أما الآن فالانسان هو الذى يستشهد بالفلسفة . إن هذا الاستعراض الفلسفى يرمى إلى تقديم الأدلة والاستشهادات . وقد روعى فى اختيار موضوعاته أن تكون متصلة بهذا الموضوع المركزى : استمرار الانسان أو تحوله ؟

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

بيان حالة علم النفس المعاصر

كان طالب الفلسفة قبل الحرب شديد الكلف بعلم ما بعد الطبيعة . وكان يعتبر مسألة طبيعة الأفكار وطبيعة الحكم مسأله جوهرية . وكان يدعى أيضاً أنه يرى العالم على صورة خاصة يريد ان ينقلها إلى غيره . وكان أستاذه فى ذلك أحد اثنين برنشفيج أو برجسون . وكان يرى أن فضيلة التنزه عن الغرض تتفق خير الاتفاق مع المجادلات الفلسفية وحدها ، حتى لقد كان يفخر عند ما يصبح أستاذا بأنه لم يعلم أحداً شيئاً كان ذا فائدة فى الحياة العملية .

وعلى أثر نشوب الحرب وما ينجم عنها بلا شك من عودة إلى كل ما هو إنسانى ، ظهر مثل أعلى آخر للفيلسوف ألا وهو السيكولوجى العملى ، Le psychologue concret ، فنجد عدداً متزايدا من الشبان يقبلون على دراسة الطب والفلسفة معاً ، أو هم يريدون على الأقل أن يتلقوا ثقافه سيكولوجية تربوية . فهم يشعرون فعلا بحاجتهم أولا إلى الطرق الفنية التى تضمن لهم النجاح فى ممارسة مهنتهم . وبحاجتهم ثانياً إلى الدقة العقلية التى تجعل من الفلسفة علما صحيحاً . وأساتذتهم فى ذلك هم الأطباء النفسانيون وعلماء التحليل النفسانى أمثال جانيه وفالون ولافورج ولاجاش وجوبيت بوتونييه وبياجيه ولالكان . فتراهم ينظمون الاجتماعات مع أطباء الامتياز فى المستشفيات السيكياتريه ، ويطلعون على طرق التوجيه المهنى .

ما معنى مثل هذا التطور ؟ إن الفلسفة آخذة شيئاً فشيئاً فى الابتعاد عن دراسة الكون والروح أو الله ، واتجهت إلى دراسة الانسان أى إلى الانتروبولوجيا . لقد ورثنا بدون شك عن الحكمة القديمة القاعدة الذهبية القائلة : « اعرف نفسك بنفسك » . ولكن هذه القاعدة التى أملتها أغراض خلقية ، بقيت نظرية مجردة . والقاعدة الجديدة لعلم النفس الحديث هى معرفة الغير معرفة محسوسة Concrete وقد دلت البحوث الأخيرة على أن الطفل الصغير يشعر بوجود الغير قبل ان يشعر بوجوده هو نفسه . والظاهرة الأساسية فى الحياة البشرية هى أن وجودنا حادث بين أشخاص آخرين ، ومن ثم نشأت النظرية الوجودية لجان بول سارتر .

كانت الفلسفات السابقة جميعها فلسفات عزلة تقريبا ، وكانت دراسة الميتافيزيقا مقصورة على طبقة خاصة . أما علم النفس الحديث فيريد أن يكون كالحضاره الصناعية ووسائل النقل فيها ، فى متناول الجميع . فهو يهتم بالطفل وبالرجل البدائى ، وبالمصاب بمرض عقلى وبالعاقل ، وهو ينفذ إلى كل البيئات وكل الأعمار وكل الأجناس . أليست معرفة الغير خير وسيلة للفرد لكى يندمج فى أسرته ومصنعه ووطنه ؟ فالفيلسوف الحديث لا يحلم فى أن يكون عالماً فى المنطق أو شاعراً ، بل فى أن يصبح طبيباً ، طبيب العقول والجماعات .

إن أزمة علم النفس الحالية تطغى على كل ما عداها من أزمات ! إن تعلما خلقيا صحيحاً لا يكون مثلا مستطاعاً إلا إذا درست طبيعة الانسان. وقد بدأت هذه الأزمة منذ عشرين عاماً على أثر ظهور كتاب بوليتزر Politzer « نقد أسس علم النفس » *Critique des fondements de la psychologie* الذى لم يظهر منه إلا جزء واحد من ثلاثة الأجزاء التى أعلن عنها . وكانت فكرة علم النفس العملى تسيطر على بوليتزر بقوة إلى درجة أنه عدل عن بحوثه التى كانت لا تزال نظرية ليناضل وسط الحزب الشيوعى . وقد نشبت منازعات مذهبية بينه وبين ذلك الحزب قبل الحرب مباشرة ، وأخيراً قتله الألمان لنشاطه فى المقاومة السرية أثناء الاحتلال . وكان بوليتزر أول من كشف وسط فيض طرق علم النفس الجديدة ، عن الطرق الثلاث التى تعتبر أكثر الطرق إدراكا للحقيقة وأعظمها مستقبلا ألا وهى : التحليل النفسانى ، وعلم النفس الشكلى ، وعلم النفس السلوكى .

ومنذ ذلك الوقت صادف علم النفس الشكلى (ويسمى بالألمانية Gestalttheorie) أعظم نجاح ، وأدى إلى ظهور سلسلة من أهم المؤلفات للاستاذ بول جيوم ، حتى أصبحت كراسى الكليات ومعامل البحوث مقصورة عليه . فبفضل فكرة « الشكل » أى الكل أو المجموع أدت هذه الطريقة خدمة جليلة وذلك باقصاء علم النفس الميتافيزيقى التقليدى الذى كان ينسب حياة العقل إلى ذرات ذهنية تشبه فى تركيبها وتجمعها المركبات الكيميائية . إن « الكل » يحتوى على أكثر مما يحتوى عليه أى جزء من الأجزاء ، ذلك هو جوهر نظرية Gestalttheorie . إن القطعة

الموسيقية شئ ونغماتها المتعاقبة شئ آخر، وكل نغمة داخلة فى القطعة أكثر منها لو كانت وحدها ؛ فالنغمة تتغير بتأثير النغمات التى تسبقها والتى تعقبها . فهى تساهم فى مجموع القطعة الموسيقية. والادراك كذلك هو نظرة إجمالية كلية ، لا نظرة إلى التفاصيل متراصة تحت المجال البصرى . ولا تدرك أول ما تدرك العناصر غير المنتظمة بل الصور الشبيهة بالأشكال الهندسية الأولية . ويقوى الادراك وينمو بنظم الأشكال الأولية داخل بناء Structuation تزيد دقته شيئاً فشيئاً . كذلك الغريزة والعادة والذاكرة والتفكير واللغة كلها منظمات إجمالية لأفعال وذكريات وأفكار ، تتميز بالتحامها وتداخلها ، إنها إطارات تكيف ما تحيط به . وعلى ذلك يكون الذكاء هو القدرة على الترتيب والتصنيف . فالكل يسبق دائما الأجزاء .

والصعوبات التى تلقاها تلك النظرية خاصة بطبيعة هذه «الأشكال» هل هى منشآت Structures طبيعية ناتجة عن الأشياء ذاتها ، أم هى بالعكس نتيجة نشاط العقل ويجب اعتبارها قوى توازنية ؟ إن المشكلة على جانب كبير من الأهمية . فالاتجاه فى الحالة الأولى اتجاه مادى ويكفى أن تطبق على الانسان نتائج الاختبارات التى تجرى على القرود والجرذان . وفى الحالة الثانية يكون الاتجاه روحياً وتقف نظرية Gestalttheorie عند حد الأوتوماتسم أى الآلية الذاتية. وعلم النفس الحديث لا يخرج عن إحدى اثنتين : المادية أو الروحية .

وميزة علم النفس السلوكى Behaviorism أنه ينتصر من غير ما تردد للحل الأول . وقد عرّف الأمريكى واتسون قاعدة هذا الحل ، وهى أن النشاط الانسانى كله ناتج عن الخصائص العامة للخلية الحية . وهو يحدد دراسة هذا النشاط بدراسة أنواع السلوك التى تظهره ، متجاهلا النظرية القائلة بأن هناك ظواهر خفية عن الشعور تتفق مع أنواع السلوك هذه . وقد استنتج الروسى بافلوف من ذلك منهجا عاما يفسر به السلوك ابتداء من الفعل المنعكس المكيف Reflexe conditionné ، فهو يرى أن حياة العقل تتكون من مقاومة الأفعال المنعكسة البدائية وصدها أو تحويلها إلى موضوعات جديدة . وما نمو الحياة العقلية إلا تجمع وتنوع هذه الأفعال المنعكسة .

إن هذه النظرية تتضمن منهجا ممتازا وتشمل فرضا فيه مجازفة : أما

المنهج فهو أن تراقب الغير وهو يعمل بدلا من أن تحلل ذاتك ، إن فى ذلك خير وسيلة لمعرفة الانسان . أما الغرض فهو أن تشبه أرق وجوه النشاط العقلى بطرق تربوية dressage أولية . ألم يُجر بافلوف اختباراته كلها تقريبا على الكلاب ؟

لهذا السبب نرى أن التحليل النفسانى هو وحده بين الطرق الثلاث لعلم النفس الحديث الذى يقربنا حقيقة من عالم المحسوس . وقد أفرد له بوليتزر الجزء الأول والوحيد من مؤلفه . ومنذ فرويد أخذ التحليل النفسانى ينمو نموا مطردا سريعاً جعل منه علما قائما بذاته يضم عددا كبيرا من المذاهب ومجموعة من المناهج . إنه علم لأنه يدرس عادة بتحليل تعليمى didactique ، ولأنه استكشف مجموعة من الحقائق المتماسكة كالميل الجنسى عند الأطفال وعقدة أوديب ورمزية الأحلام والعادات الشعبية folklores ومنشأ الأمراض étiolgie وعلاج الأمراض العصبية névroses . غير أن الناحية المشتركة بين هذا العلم والعلوم الأخرى هى صحة نتائجه فقط . إن الروح التى يتطلبها من العالم تختلف كل الاختلاف عن غيرها . فبدلا من أن تتلاشى شخصية المحلل خلف الحقيقة نجده يخوض بشخصيته كلها فى سبيل الكشف عن هذه الحقيقة . وهو أبعد من يقيم بينه وبين الأشياء حاجزاً من الاغفال وعدم الاكتراث ، بل يكون الاتصال مع الغير وجها لوجه ، فنجد الاثنين الطبيب والمريض يكونان مجموعة من القوى الفاقدة الاتزان ، ومجموعة من الاتصالات الخفية يحاول الطبيب بها أن يطهر المريض من شياطينه الداخلية ومن خطاياه محملا نفسه وزرها بطريقة رمزية ، ويجد المريض فيها قوة المثل العليا التى كان يتصورها ، فيعكسها على الطبيب .

فالمحلل والمريض أشبه بشخصيتى مأساة يحاول كل منهما فيها أن يقرر مصير الآخر . والعلاج هو نوع من المغامرة تنتهى بأن يكسب المريض الذى خلت مشاكله الخاصة صداقة معالجه وأن يحتفظ بها ؛ أما المريض الذى يفضل على مجهود العلاج التواطؤ مع دائه ذاته ، فهو يحول على الطبيب البغض الذى يشعر به نحو نفسه . فمن هذه الوجهة يعتبر التحليل النفسانى أثراً فنيا أكثر منه علما ، وهو بذلك يؤيد كل التأييد رأى القائلين بأن علم النفس الحقيقى كان يشاهد لا فى آثار الفلاسفة بل فى القصص

والتمثيليات وفى ما كان يلهم به قادة الجماهير . وإذا لم يكن علم النفس قد أفاد حتى الآن شيئا ، فقد أتيح له اليوم كسائر العلوم الأخرى مجال التطبيقات العملية ، وقد استطاع بوساطة التحليل النفسى أن يسترد قدرته الخاصة ويحدث أثره المرجو فيسلم للعلم آخر ما امتنع عليه من حصون ، ألا وهو القلب البشرى .

وأول نقطة ملحوظة فى هذا التقدم الأخير للتحليل النفسى هو التوسيع الذى أدخله فرويد نفسه على نظريات أيام الشباب . والكتاب الذى ظهر منذ عام لجولييت بوتونييه وعنوانه «القلق الشديد» *L'Angoisse* يعتبر كشفاً فى هذا الباب بالنسبة لجمهور المثقفين . فهو يتضمن صورة كاملة للغرائز . رسمها فرويد قبل موته بأيام ولم تكد تنشر . كان فرويد فى أول أمره يرجع حياة العقل اللاشعورية كلها إلى مظاهر الغريزة الجنسية فحسب أو إلى محاولات استخفائها أو التعويض عنها ، بل قد اكتشف أيضاً أن هذه الغريزة تستقر فى الفم ثم فى الشرج قبل أن تتركز فى الأعضاء التناسلية . والانحرافات الجنسية التى يروى التاريخ والأدب أمثلة شهيرة عنها ترجع إلى نمو الغريزة الجنسية نموا ناقصاً وتثبيتها عند مرحلة الطفولة . وقد حملت دراسة حالات النرجسية — أو عشق الذات — فرويد على التفكير فى الناحية الأخرى من الغريزة الجنسية ، وهى ليست سوى غريزة حب البقاء . كما اتضح أخيراً أن القلق الشديد وفقدان التوازن ، والمغالاة فى التهجم أو فى النكوص ، هى إحساسات لا يمكن أن يخلو منها الحب érotisme . فكان لا بد أن يهتدى فرويد إلى الحقيقة الواقعة وهى أن الانسان يحمل فى نفسه من الحقد بمقدار ما يحمل من الحب ، وأن روح التدمير مستقرة فيه . إن غريزة الموت وغريزة الحياة لتسكنانه وكلتاهما مزدوجة التأثير ، فتارة تتجهان نحو الغير وطوراً تنحصران فى الشخص ذاته . فغريزة الحياة هى حب بالنسبه للغير وبقاء بالنسبة للذات . وغريزة الموت تتحول من البغض إلى القتل فى الحالة الأولى ، ومن سأم الحياة إلى الانتحار فى الحالة الثانية . وتفسر الشخصية عندئذ بالنزاع بين الاتجاهين . ألا تنحصر قصة أى إنسان فى حياته وموته ؟ أو ليست قصة الانسانية كما رآها الفيلسوف اليونانى ديمقريط منذ خمسة وعشرين قرنا هى قصة النزاع بين الصداقة والعداوة ؟ إن اختلال

التوازن النفسى لا يكون حتما نتيجة انحراف جنسى . فالعنف ضرورى لتكوين الرجل ، غير أن الحب يجب أن يتغلب على العنف . إن الغرائز لا تمحوها تربية صالحة ؛ فبعضها تظل كامنة إلى أن يأتى يوم تنفجر فيه ، غير أن التربية تخضع تلك الغرائز لغرائز أخرى . ونحن نجد فرويد يفعل كما فعل أفلاطون فيما مضى ، نراه يحشد القوى ليثير من جديد معركة إيروس وثاناتوس . فالفيلسوف الحق مثل الطبيب الحق ، يريد كلاهما أن يشفى الانسانية من الموت .

إن البغض الآن أهم موضوع يدرسه علماء التحليل النفسانى . وقد أفرغ له باروك مدير المستشفيات النفسانية بمدينة شارلتون كتاباً له ظهر حديثاً عنوانه « انفعالات البغض والاجرام » *Réactions de haine et de culpabilité* ويرمى هذا الكتاب بطريقة غريبة إلى إقامة الدليل التجريبي على وجود الضمير الخلقى Conscience morale وقيمته . فكثير من المرضى يرجع مرضهم إلى غلطة شخصية قد تكون أحياناً وهمية صرفة ، يكفى أن يشعر الضمير أنه خالف نفسه . وإذا كان المذنب لا يتمثل غلطته كما يجب ليجعل منها غلطة غير ذات ضرر ، وإذا كان يحدث نفسه أن ليته لم يرتكب هذه الغلطة مع معرفته بأنه مرتكبها ، وإذا كان يود أن يعمل ألا يكون ماضيه ما كان ، فهو يتحول من مأزق خلقى ليقع فى حصار نفسى obsession ، ويشتد مقته شيئاً فشيئاً وينصبّ إما على نفسه وإما على الآخرين ، وفى الحالة الأولى يعذب نفسه مبالغاً فى تعذيبها ، ويصبح سارقاً أو قاتلا ليعاقب ذاته بهذا التدهور الخلقى ، ثم ينتهى به الأمر إلى الانتحار ، وفى الحالة الثانية يحمل الآخرين تبعة خطئه وحقده ، ويرى العالم كله شريراً ويعتبر نفسه مضطهداً فيعزم على رد الشر بالشر ثم يتردى فى أعنف حالات الجنون . وهكذا يُسبغ الطب النفسانى معنى جديداً على العقيدة القديمة التى كانت تعتبر الجنون عقاباً من الآلهة .

وأعظم ناحية من نواحى التقدم فى التحليل النفسانى تشاهد فى هذه الطريقة . فالطريقة التحليلية تكاد تختفى كلية لتحل محلها الطرق التأليفية synthétiques . فعملا بالطريقة الأولى يكفى المريض أن يستعيد ذكريات طفولته التى كان يحرص أشد الحرص على إخفائها ، وأن يلاحظ أن اختلاله

النفسي مرتبط بواحده منها . غير أن الوقوف على أسباب المرض قلما يساعد المريض على التخلص من عادات تأصلت فيه مدة طويلة . إن مجرد استيقاظ الوعى لا يغير حياة شخص ولا يرده إلى الحالة الطبيعية . لابد أولا أن يعطى المقدرة على الحياة . إن التحليل النفسانى داخل غرفة الطبيب لا يساعد المريض على أن يتكيف التكيف الصالح مع بيئته الحقيقية . أما الطرق التأليفية فهي ترمى بالعكس إلى إعادة تكيف المريض Réadaptation مع بيئته ، مستغنية فى حالة الضرورة عن اطلاع المريض على أسباب مرضه . إذا كانت الصحة العقلية أو المرض العقلى نوعاً من توازن قوى واختلالها ، فواجب الطبيب أن يقر النظام بين هذه القوى . وخير وسيلة ناجعة فى التأثير بوساطة أحلام اليقظة الموجهة على الصور العقلية images mentales التى تعتبر رموزاً لتلك القوى : صورة الأب والأم ، صورة جسد المريض نفسه ، صورة الرجل الأمثل والمرأة المثلى ، صورة الطاغية ، صورة زوج الأب الخ . . . وقد أطلق ديزواى Desoille على هذه الطريقة اسم حلم اليقظة rêve éveillé وعرضها فى مؤلفاته . وهو يحقق بذلك آراء عالمى الطب النفسانى السويسريين يونج وبودوان اللذين كانا يقولان بأن الصور مراكز نشاط وأنها توجد على النمط نفسه عند كل البشر . فمن يملك زمام مخيلته يملك زمام إرادته . وكان ذلك فاتحة عهد جديد للنقد الأدبى فيما هو خاص بالشعراء . بدأه باشلار Bachelard بكتابه عن لوتريامون Lautréamont ومارى بونابارت بكتابها عن بو ، وبودوان بكتابه عن هوجو .

ليس فى الفلسفة إلا أزمة واحدة وإن تعددت مظاهرها ، ولكنها أزمة من نوع جديد ؛ فليس الأمر كما ألفنا أمر حضارة تنهار وأخرى تقوم على أنقاضها بل حضارة واحدة تسود العالم اليوم . والمشكلة أن نعرف هل شكل هذه الحضارة الذى لا مفر منه كفيل بالبقاء . والمشكلة الخاصة التى يواجهها علم النفس هى أن يهيئ الانسان للتكيف مع الآلات ووسائل الانتقال وأدوات التعامل بالأوراق المالية instruments fiduciaires ، ونظام الحياة وكل ما أبدعه هو نفسه . إن الانسان يحيا الآن حياة صبى الساحر الذى فتح على نفسه ثغرة لم يستطع أن يسدها ، وأصبح لا سلطان له على الأشياء . وإن الضرورة لتدعو الانسان اليوم إلى استعادة زمام الحضارة

والاتيان بما يحقق تقدماً جديداً .

يدرس البير كامو فى قصته الأخيرة نفسية سكان مدينة اجتاحها الطاعون ، ثم يسائل نفسه عن خير موقف يجب اتخاذه . من السهل أن يكون المرء تقيا فى عصور الرخاء والرفاهية ، أما الصعوبة فتنشأ عند ما يحاول المرء أن يقيم على ورعه وتقواه فى النوائب والشدائد . فالحل الوحيد هو مقاومة البلاء أشد مقاومة ولو كان هذا البلاء عقابا من السماء أو فترة محتومة من سير الأمور . و إذا كان العالم مصابا كما هو اليوم ، فلا بد للفيلسوف أن يضل إذا ابتعد عن علم النفس المحسوس ؛ فمن حقه أن يكون الطبيب المعالج لهذا المرض .

انقلاب داخل المسيحية : فلسفة الأب تيلار دى شاردان

لم تعد المسيحية تلك الفلسفة الصوفية التى كانت تفصل الانسان فصلا تاما إلى جزأين غير متجانسين : الروح والجسد ، محملة هذا الأخير عبء كل الخطايا واللعنات ، مبشرة الأول بالخلاص والنعمة والمجد . لم يعد الانسان هذا الإله المغضوب عليه الذى سقط من السماء ليعيش منفيا على أرض غريبة . ولم يعد المسيحى يقف نفسه على حياة التأمل ، بل أصبح له وباسم الدين نفسه أن يجارى العصر فى حركته واضطرابه ، وأن يكون فى طليعة التقدم المادى والنهوض السياسى . إنه يشعر بتمسكه بالأرض التى خرج منها شيئاً فشيئا ، فهو يعد العدة ليتيح للانسانية أن تجتاز مرحلة جديدة من مراحل التطور البيولوجى ، ويجعل من الممكن La parousie أو عودة السيد المسيح إلى ملكه ثانية ، كما تنبأت بذلك الكتب المقدسة .

والأب تيلار هو الذى يريد أن يحقق هذا التكيف الضرورى للمسيحية مع العالم الحديث . وهو فى مراجعه واستشهاداته عالم لا رجل لاهوت . والأب تيلار مدير البحوث فى مركز البحث العلمى القومى Centre Nationale de la Recherche Scientifique وهو مدير المعمل فى مدرسة الدراسات العليا بباريس Ecole des Hautes Etudes à Paris ، والمستشار الجيولوجى للحكومة الصينية ، وهو غير ذلك أعظم عالم بيولوجى فى فرنسا . إن رحلاته الكشفية فى الصحراء الغربية وفى الحبشة وفى منغوليا —

حيث استكشف بقايا الانسان الذى عاش قبل التاريخ فى الصين — ساعدته على تكوين نظرية متينة بعد أن جمع كل الوثائق الخاصة بأصل الانسان ، ثم وسع هذه النظرية شأن كل عالم واستخرج منها نظاماً شاملا للكون يتضمن فى الوقت نفسه مستقبل الانسان وماضى النجوم . وهو لم ينشر حتى الآن شيئاً رسميا ؛ فالذين يحيطون بالبابا يكادون يعتبرونه خارجاً على الدين . ومع ذلك فكتباته المكتوبة بالآلة الكاتبة يقوم على أساسها التعليم فى المدارس الأكليريكية الفرنسية . وهو منذ عام ينشر فى مجلة « بسيشى » *Psyché* سلسلة مقالات عن بحوثه العلمية والفلسفية .

« الاحساس بالأرض » *Le sens de la terre* . إن هذا العنوان العزيز على الأب تيلار يحمل معنى كبيراً . إن للمسيحى بطبيعة الحال مقدرة على إدراك الواقع ، le sens du réel بل إن نفراً متعاقباً من الأنبياء المفكرين يبدأ من أشعياء حتى بسكال ، حاولوا أن يجعلوا الانسان يعرض عن كل ما ليس إدراكا للواقع . غير أن المسيحى مدرك أيضاً للتطور البيولوجى ، ومن هنا فقط يستمد قوته .

لقد دخل الانسان فى طور الصناعة والاجتماع socialisation . ولا تدل هذه الظاهرة على جبروت gigantisme الانسان أو رغبته فى أن يحيا حياة طفيلية ، إنما لها معنى بيولوجى بعيد الأثر . إن السير العام للكون يعرف بنمو الحياة أى بارتفاع قوة الوعى montée de la conscience و يؤكد الأب تيلار أنه استكشف القانون البيولوجى الأساسى وهو قانون الاختلاط والوعى Loi de complexité et de conscience . إن الوعى أو الشعور كان دائما موجوداً وهو خاصة عامة ملازمة للأشياء ، غير أنه لا يأخذ فى التأثر إلا عند درجة محدودة . والحياة قد كتب لها أن تعارض المادة ، وهى تنمو بقدر ما تتعقد المادة وتختلط . وانتظام الكائنات الحية انتظاماً آخذاً فى النمو يقابله ظهور الوعى عند الأفراد ونضوجه ، حتى ليمكننا أن نتمثل الكائن الحى مرموزاً إليه باهليج ellipse له بؤرتان إحداها للوعى والأخرى للاختلاط ، وكلاهما ينمو مع الآخر . ذلك هو القانون الأساسى . وهكذا انسلخت الحياة شيئاً فشيئاً عن الأرض وانفصل الوعى عن الحياة .

وقد بلغت البؤرتان أقصاهما فى

الانسان . هل فى الامكان أن يكون هناك ما هو أشد تعقيداً من الانسان ؟ نعم الظاهرة الجماعية Le phénomène social .

ليست الانسانية كومة مجمعة agrégat ولكنها وحدة بنائية تختلف عن الأنواع الأخرى بأنها غير مفرقة أو متباعدة . إن الانسانية كلها تحمل صفات الانسان الفرد الذى هو كائن دماغى يدوى cérébro-manuel : فيده هى فى الوقت نفسه الآلة ووسيلة النقل التى تحدث اتصالا على الفور بين ملايين الأدمغة . ودماغه هو النفسية الكونية psychisme cosmique الناتجة عن تلك العملية ، والانسانية هى أيضاً إهليج ، له بؤرة تنظيم فنى organisation technique و بؤرة وعى: وكثرة الطرق الفنية الحاضرة أبعد من أن تكون مصطنعة ، إنما هى استطراد للطبيعة ، بل هى أرقى من الطبيعة .

هل وصلت هاتان البؤرتان إلى حدهما ؟ إن المقدرة التى يكتسبها الانسان على الطبيعة لا تكاد تكون محدودة ، فهو يعرف كيف يفصل الذرات ؛ ويستطيع أن يؤثر فى الكروموزومات Chromosomes التى تحمل الوراثة ، ثم هو يتعقب خفايا اللاشعور بوساطة التحليل النفسانى . ففى استطاعة الانسانية اليوم أن يحول البؤرة الأولى إلى بؤرة تعقيد واختلاط . فيتدخل عندئذ قانون الارتباط و يحدث ارتفاعا فى النفسية البشرية psychisme humain وهذه الأخيرة على أية حال بدأت تزداد من حيث الكمية والنوع والقوة . وكان التطور قد بلغ مع الانسان أعلى ما يستطيع بلوغه ، فهو الآن يتخذ من الإنسان نقطة ابتداء وفى الوقت ذاته ينعكس على نفسه كما لا حظ هكسلى . كانت الحياة حتى اليوم ترتفع متحسسة مترددة ، أما الآن فليس فى إمكانها أن تسير على غير هدى . لابد للانسان أن يضع نصف عينيه هدفا يتجه إليه . ومن هنا تتضح الحاجة إلى مذهب أو فلسفة idéologie وقد سدت الماركسية هذه الحاجة ولكن بطريقة غير وافية ؛ إذ أنها لم تر إلا بؤرة واحدة من الاهليج فهى تعتبر المجموع المنتظم كل شئ وبذلك تظل مادية . أما المذهب الحقيقى فسيكون روحيا ، ومعنى ذلك أن البؤرة الروحية يجب أن تقود التنظيم الآلى . وهذا المذهب هو المذهب المسيحى . ففى سر التجسد incarnation تقدم لنا المسيحية مركزا إلهيا غاص جزء منه فى العالم ، وعلى

البشر أن يعملوا حتى يطفو المسيح تماماً .

تلك هى أهم النقط فى فلسفة الأب تيلار دى شاردان الذى يعتبر المسيحية فلسفة رفى لا فلسفة يأس ، والذى برى أن حب الله لا يمنع الثقة بالانسان . ويمكننا أن نلخص هذه الفلسفة بقولنا إن الانسان إذا ملك زمام العالم ملك زمام نفسه . ويجب على المسيحية أن تظهر فى موقف المسيطر المتسلط على المادة . فالوسائل الآلية قد تخلص الانسان بمقدار ما يخلصا تواضعه ، ويكفيه أن يشعر أنه سعى وجاهد حتى النهاية .

ماذا نقول عن مدى تأثير هذه النظرية ؟ إنها لم تعرف بعد إلا فى وسط محدود من الأساتذة والعلماء والأطباء ورجال القانون والسياسة الذين اطلعوا عليها عن طريق محاضرات الأب تيلار التى كثر عددها هذا الشتاء فى باريس . وقد استقبلت آراؤه استقبالا رائعا إلا من جماعة الوجوديين أمثال جبرييل مارسيل الذين يحبذون التجربة الداخلية expérience intérieure ويلعنون الحضارة ووسائلها الآلية .

يجب أن نذكر أيضاً ثلاث وقائع فى عالم المسيحية ، تؤكد ما كان للأب تيلار دى شاردان من أثر توجيهى . فمنذ عامين أخذت هيئة كاثوليكية تضم رجال الفكر الفرنسيين وتنتمى إلى اتحاد دولى ، تدرس مشاكل الوجودية فى العلم والحضارة ، كما شرع الأطباء الكاثوليكيون ينشرون منذ الوقت نفسه « كراسات لاينك » *Cahiers Laënnec* وقد خصوها بمسائل الفروض الطبية Déontologie médicale كالاجهاض والتلقيح الصناعى l'insémination والتخلص من المصابين بداء عضال l'euthanasie الخ : إنْ هذه العودة إلى تعليم أخلاقى محسوس Morale concrète من الأهمية بمكان ؛ لأنها حدثت فى الوقت الذى تمتحن فيه أسس الأخلاق بأزمة شديدة . ثم تكونت أخيراً جماعة الشيوعيين المسيحيين وأصدروا نشرة لتكون أداة اتصال ، يديرها مندوز رئيس التحرير السابق « الشهادة المسيحية » *Témoignage chrétien* وتعبر هذه الجماعة آخر بادرة لانقلاب مسيحى محتمل الوقوع .

دومينيك أنزيو

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم